أصل الكلمة عند الراغب الأصفهاني وأثر ذلك في فهم الكلمة وتفسيرها

The Significance of Word Origin According to Al-Raghib Al-Isfahani and its Impact on Understanding and Interpretation

محمد شيخ قاسم1

جامعة صباح الدين الزعيم – تركيا - إسطنبول

kassem.mohammad@std.izu.edu.tr

الملخص:

يكشف هذا البحث عن منهج أصيل تميّز به الراغب الأصفهاني في كتابه "مفردات ألفاظ القرآن" الذي يقوم على تحديد إحدى كلمات الجذر على أنها الأصل، ومنه اشتقت سائر كلماته. وكان الغالب عنده أن يكون الأصل في كل جذر كلمة منه تدل على شيء محسوس، ثم تتطور إلى معنى مجرد. اعتمد الراغب في "مفردات ألفاظ القرآن" على ردّ الكلمات إلى الأصل الذي أخذت منه لفهم الكلمة القرآنية فهما عميقا دقيقا، وغينا صحيحا، فكان له أثر بالغ في رسم منهج علمي جدير أن يُعطى حقّه من الدراسة والبحث والتطبيق. ويركز البحث على أثر معرفة أصل الكلمة وفق منهج الراغب في أربعة جوانب وهي: بيان المعنى، والتمييز بين الحقيقة والمجاز، والفروق اللغوية، ومعرفة تاريخ الكلمة وبيئتها. وهذه المسائل الأربعة من أهم ما تحتاجه الكلمة لفهمها فهما عميقا ولتفسيرها تفسيرا دقيقا.

الكلمات المفتاحية: أصل الكلمة، مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني.

1- جامعة صباح الدين الزعيم – تركيا - إسطنبول

Abstract

This article unveils the authentic methodology distinguished by Al-Raghib Al-Isfahani in his book "Mufredat Alfaz Al-Quran," which revolves around identifying the root word as the origin from which all its derivatives stem. His prevailing notion was that within each word's root lies a tangible concept that evolves into an abstract meaning. In "Mufredat Alfaz Al-Quran," Al-Raghib relied on tracing words back to their origins to deeply and accurately comprehend Quranic vocabulary, thereby contributing significantly to a scholarly method deserving thorough study, research, and application.

The article focuses on the impact of understanding word origins through Al-Raghib's methodology across four facets: elucidating meaning, distinguishing between literal and figurative, linguistic nuances, and understanding the word's historical context and environment. These four aspects stand as pivotal prerequisites for a profound understanding and precise interpretation of words.

Keywords: Word Origin, Vocabulary of the Quran, Al-Raghib Al-Isfahani

المقدمة :

أولى العلماء معرفة أصل الكلمة اهتماماً كبيراً؛ لأنه الأساس الأهم في فهم الكلمة فهماً عميقًا، وللوعي بدلالتها وإيحاءاتها وصورها، ولأنه يكشف عن تطور دلالات الكلمة وتاريخها وبيئتها، وبه يتميز المعنى الحقيقي من المعاني المجازية، وتظهر الفروق بين المترادفات اللغوية، وتُعرَف العلاقات التي بين كلمات الجذر الواحد. ومعرفة تلك الأشياء من القضايا الأساسية في فهم الكلمات فهماً عميقًا دقيقًا واضحاً معزَّزاً بما يُجلب من بيئة الكلمة وتاريخها ما يزيد المعنى رسوخًا في العقل وتأثيراً في النفس.

لهذه الصلة الوثيقة بين معرفة أصل الكلمة، وبين ما تُبنى عليه من مسائل لغوية أساسية، لها تأثير كبير في تفسير القرآن الكريم، انبرى العلماء منذ القدم لإفراد هذه المسألة بمصنفات خاصة، وكان ممن ألف في هذا الموضوع الــمُفضّل الضبّي (ت168ه) والأصمعي (ت215ه) والأخفش (ت215ه) والمبرد (ت285ه) والزجاج (ت316ه) وابن دريد (ت331ه) وغيرهم،[1] وصولًا إلى العالم الذي يدرسه هذا البحث وهو الراغب الأصفهاني (ت425ه) وكتابه "مفردات ألفاظ القرآن".

وأوضح الراغب الأصفهاني أهمية هذه المسألة وعلاقتها بتفسير القرآن الكريم، فقال في مقدمة كتابه: "أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلومُ اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو

[1] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (911ه)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط1. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1418ه – 1998م) 278/1

نافع في كل علم من علوم الشرع"[1] وبعد أن ذكر طرفاً من خصائص منهجه كالكشف عن العلاقات بين الكلمات، والتفريق بين ما يبدو من المترادفات، وصف من يهمل هذه الأشياء ولا يراعيها في التفسير بأنه لا يحق الحق ولا يبطل الباطل، وبأن من فسر: "الحمد لله" بـــ "الشكر لله" و"لا ريب فيه" بـــ "لا شك فيه" ما فسر شيئًا من القرآن ولا وفّاه حقه من البيان.[2]

مشكلة البحث:

هذا البحث يجيب على السؤال الرئيسي التالي: ما منهج الراغب في ردّ الكلمات إلى أصولها وما تأثير ذلك في شرحه للمفردات وتفسيرها؟

ويتفرع عن هذا السؤال ثلاثة أسئلة وهما:

1. *ما هو الأصل عند الراغب الأصفهاني؟*
2. *ما خصائص الأصل عند الراغب؟*
3. *ما أثر منهجه في فهم الكلمة وتفسيرها؟*

[1] الحسين بن محمد بن مفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت425ه)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط4. (دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، 1430ه – 2009م) 54

[2] المرجع السابق، 54

أهداف البحث :

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- الكشف عن منهج الراغب الأصفهاني في تحديد الكلمة الأصل التي اشتقت منها كل كلمات الجذر.
- الكشف عن تأثير منهج الراغب في فهم الكلمة العربية وتفسيرها.
- تقييم الدقة والتفصيل اللغوي في منهج الراغب الأصفهاني في تحليل الكلمات الأصلية والعلاقة بينها وبين مشتقاتها، مما يساهم في فهم عميق لطريقة تطور المعاني والمفاهيم اللغوية في العربية.
- استكشاف الاستخدامات الحالية والتطبيقات العملية لمنهج الراغب الأصفهاني في فهم اللغة العربية، وتحليل كيف يمكن تطبيق هذا المنهج في فهم النصوص القرآنية والأدبية والتفاعل مع اللغة العربية المعاصرة.

أهمية البحث:

للبحث أهمية نظرية وأهمية تطبيقية، أما أهمته النظرية فإن منهج الراغب الأصفهاني لم يحظ بما يستحقه من الدراسة والكشف عن معالمه فتأتي أهمية هذا البحث أولا من الكشف عن منهج الراغب في ردّ الكلمات إلى أصلها وعن مفهومه للأصل. وأما أهميته التطبيقية فتظهر في تطبيقاته على دراسة الكلمة وفهمها، فهذه الدراسة تبرز منهجا فريدا قادرا على حل كثير من المشكلات اللغوية العالقة مثل التمييز بين المعنى الحقيقي للكلمة ومعانيها المجازية، وبين المترادفات اللغوية للوصول إلى المعنى الدقيق بدلًا من المعنى التقريبي، وعلى الإحاطة بمراحل تطور الكلمة

وتنقّلاتها، وعلى وصل الكلمة ببيئتها فتجلب منها الكثير من الصور والأحاسيس والإيحاءات وغير ذلك من الـــمُعزِّزات المؤثِّرة على المعنى رسوخا ووضوحا في العقل وعلى النفس تأثيراً ووعياً. كما تظهر أهميته التطبيقية في تفسير القرآن الكريم ولعل هذه الناحية هي التي حركت الهمم منذ القدم إلى هذه الدراسات والمؤلفات العظيمة كما قال الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه: "أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلومُ اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة" وبعد أن ذكر طرفا من خصائص منهجه، وصف من لا يراعيها في التفسير بأنه: لا يحق الحق ولا يبطل الباطل، وبأن من فسر: (لا ريب فيه) بـــ(لا شك فيه) ما فسَّر شيئًا من القرآن ولا وفّاه حقه من البيان.[1]

الدراسات السابقة:

1. البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني من خلال كتابه المفردات في غريب القرآن الكريم إعداد عمر حدوارة، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، عام 2006م. درس بعض القضايا اللغوية المتعلقة بمعنى الكلمة مثل الترادف والمشترك اللفظي ودور السياق في تحديد المعنى، ولم تتناول هذه الدراسة موضوع الاشتقاق وأصل الكلمة ومنهج الراغب في ردّ الكلمات إلى أصولها.

2. منهج الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات في غريب القرآن، إعداد محمد أحمد علي إدريس رسالة ماجستير في جامعة الخرطوم عام 2007م. عرض منهج الراغب في كتاب المفردات بشكل عام وأشار إلى اهتمامه بمعرفة أصل الكلمة

[1] المرجع السابق، 54

واعتماده عليها في تحديد المعنى الدقيق للكلمة، ولكنه لم يتطرق إلى منهجه في الوصول إلى أصل الكلمة، وهي المسألة الأساسية في هذه الدراسة.

3. الفروق اللغوية عند الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات وأثرها في دلالات الألفاظ القرآنية إعداد محمد محمود الزواهرة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2007م. درس ظاهرة الفروق اللغوية بالتفصيل، وذكر أن معرفة أصل الكلمة من الأشياء التي اعتمد عليها الراغب في معرفة الفروق الفردية وهو في هذه المسألة فقط يتقاطع مع موضوع هذا البحث.

المبحث الأول: الراغب الأصفهاني وكتابه مفردات ألفاظ القرآن:

لا بد من تعريف موجز بالراغب الأصفهاني، ثم بكتابه مفردات ألفاظ القرآن الذي يستنبط منه الباحث منهجه في رد الكلمات إلى أصولها.

المطلب الأول: ترجمة الراغب الأصفهاني:

المعلومات حول حياة الراغب الأصفهاني ونشأته قليلة شحيحة، وقد ذكر الذهبي وهو يترجم له في سير أعلام النبلاء أنه لم يظفر له بوفاة ولا بترجمة،[1] فلم يُعرف اسمه على وجه اليقين، بل اختلفوا فيه على أقوال عدة، أشهرها وعليه سار أكثر من ترجم له أن اسمه الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم المعروف بالراغب الأصفهاني.[2] فـ"الراغب الأصفهاني" هو اللقب الذي اشتهر به. ولد الراغب الأصفهاني في "أصبهان"، وذكر أنّه سكن بغداد.[3]

وقد وُصف الراغب الأصفهاني بصفات تدل على سعة علمه ودقة تحقيقه، وعلى ذكائه وملكاته العالية، وعلى القبول الذي كتب له بين الناس. وقد جمعها صفوان داوودي كلها وساقها، يكتفي البحث بذكر أهمها، قال الذهبي: "العلّامة الماهر، والمحقق الباهر، كان من أذكياء المتكلمين".[4] وقال البيهقي وغيره: "كان من حكماء الإسلام، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة، وكان حظّه من المعقولات أكثر".[5]

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت٧٤٨ ه)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي، ط١١. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م) 120/18

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء، 120/18

[3] الزركلي، الأعلام، 255/2

[4] الذهبي، سير أعلام النبلاء، 120/18

[5] الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 13

وقال الصلاح الصفدي: "أحد أعلام العلم، ومشاهير الفضل، متحقق بغير فنّ من العلم، وله تصانيف تدل على تحقيقه وسعة دائرته في العلوم، وتمكّنه فيها"..[1] وقيل عنه: "وفضله أشهر من أن يوصف، ووصفه أرفع من أن يعرف، وكفاه منقبة أنّ له قبول العامة والخاصة، وفيما تحقّق له من اللغة خاصة".[2]

وكان الراغب يؤثر التواضع، ويكره الشهرة والذيوع، ويعتبر أنّ من مدح نفسه فقد ذمها، فيقول: "وأعوذ بالله أن أكون ممن مدح نفسه وزكّاها، فعابها بذلك وهجاها".[3] ويرى أنّ من ذكر أشعاره في مصنفاته فهو مزر بعقله، فيقول: "أعوذ بالله أن أكون ممن يزري بعقله بتضمين مصنفاته شعر نفسه".[4] وذُكر أن الراغب كان من الصوفية، بل كان من مشايخ الطريقة.[5]

وقد كان الراغب من أئمة أهل السنة المشهود لهم بالعلم والفضل فراحت كل فرقة تنسبه إليها فمن ذلك أن المعتزلة نسبوه إليهم وكذلك الشيعة، على الرغم أنه رد عليهما في مواطن كثيرة، ففي كتاب المفردات يردّ على المعتزلة، ففي جذر (ختم) يردّ على الجبائي شيخ المعتزلة،[6] وعلى البلخي في مادة (خل) ويخالف المعتزلة.[1]

---

[1] صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ – 2000م) 45/13

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 14

[3] أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ط1. (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1420هـ) 14/1

[4] المرجع السابق، 153/1

[5] الراغب الأصفهاني، المفردات، 14

[6] الراغب الأصفهاني، المفردات، 274

وقد عد الراغب المعتزلة والمتشيعة من الفرق المبتدعة السبعة الذين هم كالأصول للفرق الاثنين والسبعين ثم قال: "والفرقة الناجية هم أهل السّنّة والجماعة الذين اقتدوا بالصحابة".[2] وهذا نص واضح أنّ الراغب ليس من المعتزلة ولا من الشيعة، بل من أهل السنة والجماعة.

وبالنسبة لمذهبه الفقهي لم يكن من المقلّدين لأحد المذاهب الفقهية، بل كان مجتهداً، يعرض أقوال الفقهاء في كتبه، فتارة يأخذ بقول ذا وتارة بقول ذاك، وإن كان يميل للشافعي أكثر من غيره فجعله بعضهم شافعيًّا.[3]

كان الراغب الأصفهاني من المكثرين من التصنيف، وقد خلّف تراثًا كبيراً من المؤلفات في فنون وعلوم شتى، وقد أحصى محقق كتاب المفردات ما نسب إليه من كتب فبلغت 23 كتابا، وهذه أهم الكتب التي وصلت إلينا: مفردات ألفاظ القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ومحاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء. هذه من أشهر كتبه المطبوعة.

اختلف في وفاته كثيراً، فذكروا أقوالًا كثيرة ما بين 402ه و503ه. ورجح المجمع العلمي العربي أنّ وفاته كانت سنة 452 هـ. في حين رجح صفوان داوودي أن وفاته كانت حوالي سنة 425 هـ. وهذا يتفق مع ما ذكره السيوطي، ويقارب ما ذكره الذهبي، ويقارب ما وجد على النسخة الخطية في دمشق.[4]

---

[1] المرجع السابق،290

[2] أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، الاعتقادات، ط1. تحقيق شمران العجلي، (بيروت: مؤسسة الأشرف، 1988م) ص 26

[3] الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 16

[4] المرجع السابق، ص 37

المطلب الثاني: تعريف بكتاب مفردات ألفاظ القرآن:

لم تكن جهود الراغب الأصفهاني في الاشتقاق محصورة في كتاب مفردات ألفاظ القرآن، بل يستطيع الباحث أن يجزم بأن له كتاباً في الاشتقاق خصصه لبيان مذهبه فيه، وتفصيل طريقته، وذلك لأن الراغب أحال في موضوعين من كتاب المفردات إلى كتاب سماه "أصول الاشتقاق" أحدهما قوله في (برد) والثاني في (جدر).[1] بالإضافة إلى أنك عندما تقرأ في كتاب المفردات تجد أنه إنما يذكر فيه خلاصة ونتيجة لما فصل فيه من قبل وأطنب، فكتاب المفردات بمثابة تطبيق عملي لقواعد في الاشتقاق فصّلها في كتاب سابق، وإن لم يصرح بذلك في أكثر الكلمات التي شرحها. وهذا ما جعل كتاب المفردات يحتاج إلى دراسة علمية تستنبط المنهج الذي اعتمده في معرفة أصول الاشتقاق.

صرح الراغب في مقدمة مفردات ألفاظ القرآن بهدفه من الكتاب وطريقته فقال: "وقد استخرت الله في إملاء كتاب مستوف فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي، فتقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم، معتبراً فيه حروفه الأصلية دون الزائدة، والإشارة فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب".

فهذا النص وما في الكتاب يحدد معالم الكتاب وطريقته:

1. أنه لم يقصد وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية كما فعل ابن فارس، وإنما قصد جمع كلمات القرآن الكريم وشرحها وتفسيرها، ولكنه أغفل كثيراً من كلماته، ومن ذلك: (غوط) (زبن) (قرش) (قدو) (نضخ) (فني).

[1] المرجع السابق، صفحة 118 وصفحة 189

2. الكتاب مرتب على حسب حروف المعجم الألفبائية، بحسب الحروف الأصلية للكلمة.
3. يشير الكتاب بحسب ما يسمح حجمه إلى العلاقات بين الألفاظ فيما بينها، وكيف تنتقل من معنى إلى معنى، ومن المعنى الحقيقي إلى المجازي.

وقد أثنى على هذا الكتاب واستفاد منه علماء أجلاء؛ فذكر الزركشي أنه من أحسن ما كتب في معرفة غريب ومعرفة مدلوله، ووصفه الفيروزآبادي بأنه لا نظير له في معناه، وأكثر من النقل منه والاستفادة، كما نقل عنه كل من السيوطي في الإتقان، والرازي في تفسيره، والبغدادي في خزانة الأدب، والزبيدي في تاج العروس، وابن حجر في فتح الباري، وابن الحنبلي في عقد الخلاص، والسمين في الدر المصون، والألوسي في روح المعاني، وابن القيم في بدائع الفوائد.[1]

لم يذكر الراغب في مقدمة كتابه المصادر التي اعتمد عليها، ولكن من يقرأ الكتاب يجد فيه نصوصاً تتقارب وقد توافق مع كتب سابقة عليه، وهذا ما حمل الداودي على تعداد قائمة كبيرة من المصادر التي نهل منها الأصفهاني، ومن أهمها: كتاب المجمل في اللغة لابن فارس، وكتاب الشامل في اللغة لأبي منصور الجبان، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت، وكتاب الجمهرة لابن دريد، ومعاني القرآن للزجاج، وكتاب العين للخليل، وتفسير أبي مسلم الأصفهاني، ولعلّ تأثّر الراغب بالمعتزلة حاصل من أخذه من هذا الكتاب، وكتاب سيبويه، وغير ذلك كثير، فضلًا عن نقله كلام السلف من الصحابة والتابعيين، كابن عباس ومجاهد، ونقله عن اللغويين كالمبرد والكسائي ويونس، والأصمعي، وعن القراء كحمزة ويعقوب، وعن المتكلمين كالجبائي والبلخي.[2]

---

[1] المرجع السابق، ص 24

[2] المرجع السابق، ص 24

المطلب الثالث: مفهوم الأصل عند الراغب وخصائصه:

1. مفهوم الأصل عند الراغب الأصفهاني:

الأصل عند الراغب الأصفهاني في كل جذر هو أحد كلماته، ثم اشتقت منه أو من بعض فروعه سائر كلمات الجذر لعلاقة أو سبب أو مناسبة لُحظت عند الاشتقاق، ويمكن أن تكون الكلمة الأصل اسمًا أو فعلًا أو حرفًا، ويمكن أن تكون معنى مجردًا أو ذاتًا محسوسة.

ومن الأمثلة التي جعل فيها الراغب الأصفهاني الاسم هو الأصل (أزر) فيقول "أصل الأزر الإزار الذي هو اللباس" ثم يشرح كيف تفرعت منه باقي كلمات الجذر فـــ"الأزر: القوة الشديدة، وآزره: أعانه وقوّاه، وأصله من شدّ الإزار... يقال: آزرته فتأزّر، أي: شددت أزره، وهو حسن الإزرة، وأزرت البناء وآزرته: قوّيت أسافله، وتأزّر النّبت: طال وقوي، وفرس آزر: انتهى بياض قوائمه إلى موضع شدّ الإزار".[1]

فالأصل عند الراغب الأصفهاني كلمة واحدة، وهي في هذا المثال (الإزار) تفرعت منها باقي الكلمات، لعلاقة بينها وبين الأصل.

ومن الأمثلة التي جعل فيها الراغب الأصفهاني الفعل هو الأصل قوله في (أث) "وأصله من: أثّ، أي: كثر وتكاثف".[2]

وجعل الراغب الأصفهاني الحرف أصل يشتق منه، فقال: "إلى: حرف يحدّ به النهاية من الجوانب الست، وأَلَوْتُ في الأمر: قصّرت فيه، هو منه، كأنه رأى فيه الانتهاء".

---

[1] المرجع السابق 74

[2] المرجع السابق،61

وفي بعض الموطن جعل الراغب الأصفهاني المعنى المجرد هو الأصل قوله في (ثوب) "أصل الثَّوْب: رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى الحالة المقدّرة المقصودة بالفكرة، وهي الحالة المشار إليها بقولهم: أوّل الفكرة آخر العمل. فمن الرجوع إلى الحالة الأولى قولهم: ثَابَ فلان إلى داره، وثَابَتْ إِلَيَّ نفسي، ومن الرجوع إلى الحالة المقدرة المقصود بالفكرة الثوب، سمّي بذلك لرجوع الغزل إلى الحالة التي قدّرت له، وكذا ثواب العمل، والثَّيِّب: التي تثوب عن الزوج، والتَّثْوِيب: تكرار النداء، ومنه: التثويب في الأذان، والثُّوبَاء التي تعتري الإنسان سميت بذلك لتكررها، والثُّبَة: الجماعة الثائب بعضهم إلى بعض في الظاهر".[1]

2. خصائص الأصل عند الراغب الأصفهاني:

يمكن إيجاز خصائص الأصل عند الراغب بما يلي:

أ. الأصل هو أحد كلمات الجذر:

في الغالب لا يحتاج الأصل عند الراغب إلى صياغة، لأن الأصل عنده إنما هو أحد كلمات الجذر، فعندما يقول في الجدال مثالا: "وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله"فلا يحتاج إلى أي صياغة، غاية ما في الأمر أنه حدد الكلمة الأصل. ولكنه يحتاج إلى الصياغة في المواطن التي يكون الأصل معنى مجردا مأخوذا من المعنى المشترك بين كلمات الجذر، والملاحظ في هذه الحالة أن صياغته تكون دقيقة تجعل الكلمة تتميز عن الكلمات المرادفة لها، وكثيراً ما يشير إلى تلك الفوارق وينص عليها.

[1] المرجع السابق 179

فهو يقول مثلًا في جذر (بجس): "انبجس: انفجر، ولكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عزّ وجل: فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا [الأعراف/ 160] ، وقال في موضع آخر: فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا [البقرة/ 60] ، فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان، قال تعالى: وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا [الكهف/ 33] ، وقال: وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا [القمر/ 12] ولم يقل: بجسنا".[1]

ب. **التجسيد:**

الأولى عند الراغب أن يكون الأصل من الكلمات المحسوسة، ولعله لا يعدل عنه إلى المعنى المجرد إلا عندما يتعذر عليه العثور على الكلمة المحسوسة التي ترجع إليها باقي الكلمات بعلاقة ما، فعندها يلجأ للتجريد، ومما يوضح ميله إلى جعل الكلمات المحسوسة أصلًا مع إمكان جعلها معنى مجردا قوله: "والبَدْرُ قيل سمّي بذلك لمبادرته الشمس بالطلوع، وقيل: لامتلائه تشبيهًا بالبَدْرَةِ، والأقرب عندي أن يجعل البدر أصلًا في الباب، ثم تعتبر معانيه التي تظهر منه، فيقال تارة: بَدَرَ كذا، أي: طلع طلوع البدر، ويعتبر امتلاؤه تارة فشبّه البدرة به" فلم يقبل أن يكون الأصل معنى الامتلاء ولا معنى الإسراع، بل جعل البدر ذاته هو الأصل ومنه جاء المعنيان، وهو في هذا الموطن وجد قرينة تجعله يميل إلى ترجيح البدر، وذلك لأن البدر يشمل المعنيين المحتملين لأن يكونا أصلًا للجذر، ومبدأ وحدة الأصل يرجح الكلمة التي تشمل المعنيين.

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 108

وفي كتاب المفردات مواطن يترك فيها الراغب الترجيح بين الاحتمالات الممكنة لأن تكون أصلا، وذلك عندما تكون الاحتمالات كلها مما يصح أن يكون أصلًا على منهجه، ومن ذلك ما قاله في (جرد): "الجَرَاد معروف، فيجوز أن يجعل أصلًا فيشتق من فعله: جَرَدَ الأرض، ويصح أن يقال: إنما سمّي ذلك لجرده الأرض من النبات، يقال: أرض مَجْرُودَة، أي: أكل ما عليها حتى تجرّدت. وفرس أَجْرَد: منحسر الشعر، وثوب جَرْدٌ: خلق، وذلك لزوال وبره وقوّته، وتَجَرَّدَ عن الثوب، وجَرَّدْتُهُ عنه، وامرأة حسنة المتجرد. وروي: جرّدوا القرآن أي: لا تلبسوه شيئًا آخر ينافيه، وانْجَرَدَ بنا السير، وجَرِدَ الإنسان: شري جلده من أكل الجراد".[1]

ت. الأصل هو الكلمة الأولى في الجذر:

يفترض منهج الراغب أن الأصل في كل جذر هو الكلمة الأولى التي وضعت من حروفه، ثم تفرعت باقي الكلمات منه لعلاقة ما، والعمل على هذا الأساس بمثابة التأريخ لكلمات الجذر. انظر إليه كيف يشرح تسلسل تطور الكلمات واشتقاقها من الكلمة الأصل وارتباطها به:

يقول في (جلس): "أصل الجَلْس: الغليظ من الأرض، وسمي النجد جلسا لذلك، وروي "أنّه عليه السلام أعطاهم معادن القبلية غوريّها وجَلْسِيّها" وجَلَسَ أصله أن يقصد بمقعده جلسا من الأرض، ثم جعل الجُلُوس لكل قعود، والـمَجْلِس: لكلّ موضع يقعد فيه الإنسان".[2]

ويقول في جذر (جدد): "الجَدُّ: قطع الأرض المستوية، ومنه: جَدَّ في سيره يَجِدُّ جَدًّا،

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 191

[2] المرجع السابق، 119

وكذلك جَدَّ في أمره وأَجَدَّ: صار ذا جِدٍّ، وتصور من: جَدَدْتُ الأرض: القطع المجرد، فقيل: جددت الثوب إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد: أصله المقطوع، ثم جعل لكل ما أحدث إنشاؤه، وقوبل الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب، ومنه قيل لليل والنهار: الجَدِيدَان والأَجَدَّان، قال تعالى: وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ [فاطر/ 27]، جمع جُدَّة، أي: طريقة ظاهرة، من قولهم: طريق مَجْدُود، أي: مسلوك مقطوع، ومنه: جَادَّة الطريق، والجَدُود والجِدَّاء من الضأن: التي انقطع لبنها. وسمي الفيض الإلهي جَدًّا، قال تعالى: وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا [الجن/ 3]، أي: فيضه، وقيل: عظمته، وهو يرجع إلى الأوّل، وإضافته إليه على سبيل اختصاصه بملكه، وسمي ما جعل الله للإنسان من الحظوظ الدنيوية جَدًّا، وهو البخت، فقيل: جُدِدْتُ وحُظِظْتُ، وقوله عليه السلام: "لا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ" أي: لا يتوصل إلى ثواب الله تعالى في الآخرة بالجدّ، وإنّما ذلك بالجدّ في الطاعة. والجَدُّ: أبو الأب وأبو الأم. وقيل: معنى لا ينفع ذا الجدّ لا ينفع أحدا نسبه وأبوّته، فكما نفى نفع البنين في قوله: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ [الشعراء/ 88] كذلك نفى نفع الأبوّة في هذا الحديث".[1]

وقال في (بقل)"البَقْلُ: ما لا ينبت أصله وفرعه في الشتاء، وقد اشتق من لفظه لفظ الفعل، فقيل: بَقَل، أي: نبت، وبَقَل وجه الصبيّ تشبيهًا به، وكذا بَقَلَ ناب البعير، وأَبْقَلَ المكان: صار ذا بقل".[2]

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 187

[2] المرجع السابق، 138

ث. وحدة الأصل:

الأصل في كل جذر واحد لا يتعدد، ويظهر تمسك الراغب بوحدة الأصل في المواطن التي يبدو أنها لا يمكن أن تُرَدّ إلى أصل واحد، كما في (برر) فقال فيها: "البَرُّ خلاف البحر، وتصوّر منه التوسع فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسع في فعل الخير... وبِرُّ الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، ويستعمل البِرُّ في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه. والبُرُّ معروف، وتسميته بذلك لكونه أوسع ما يُحتاج إليه في الغذاء".[1] فانظر كيف جمع بين هذه الكلمات المتباعدة في المعنى. ومثل هذا في (برد).[2]

[1] المرجع السابق، 114

[2] المرجع السابق، 116

المبحث الثاني: أثر منهجه في فهم الكلمة وتفسيرها:

يتناول هذا المبحث أثر منهج الراغب في أربع قضايا مؤثرة في فهم الكلمات وفي تفسيره وهي: بيان المعنى، والتمييز بين الحقيقة والمجاز، والمترادفات والفروق اللغوية، ومعرفة تاريخ الكلمة وبيئتها.

المطلب الأول: أثر منهج الراغب في بيان المعنى:

الأكثر أن يكون الأصل عند الراغب من الماديات والمحسوسات، ولا يخفى أن الأشياء المحسوسة أقرب إلى العقل والفهم من المعاني المجردة، وفي هذا قال عبد القاهر الجرجاني رحمه الله تعالى:

"العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، وكما قالوا ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين... ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذن أمس بها رحما، وأقوى لديها ذمما، وأقدم صحبة، وآكد عندها حرمة".[1] فهذا نص عزيز يبين ما نحن فيه أحسن بيان، ويستطيع القارئ أن يدرك هذا من خلال قراءة شرح الكلمة ذاتها مرة على طريقة التجريد وهي طريقة ابن فارس في مقاييس اللغة، وأخرى على طريقة التجسيد ليرى بنفسه أي المنهجين أقدر على شرح الكلمات وإبراز معانيها.

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، 121

المثال الأول في شرح كلمة الجند:

- الأصل في الجند التجمع والنصرة. يقال هم جنده، أي أعوانه وأنصاره. والجند: الأرض الغليظة فيها حجارة بيض.[1]
- الجند: الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ومنه قيل للعسكر جند اعتباراً بالغلظة.[2]

فتبدأ الطريقة الأولى من معنى مجرد وهو التجمع والنصرة، ثم تذكر أن مما يدخل في هذا المعنى الجند لأن فيهم تجمع ونصرة، وتذكر وأن منه الأرض الغليظة التي فيها حجارة. وهذا المسلك يجعل معنى الجند التجمع والنصرة فحسب. وأما الطريقة الثانية فتبدأ معك من الأرض الغليظة التي فيه حجارة، ثم تقول لك أطلق على العسكر جندٌ تشبيه لهم بالأرض الغليظة، وهذه الطريقة زادت على المعنى الذي تحقق بالطريقة الأولى زيادة مهمة ومؤثرة جدا، وهي أن الجند الذين يتجمعون للنصرة فيهم شبه بالأرض الغليظة فهم أشداء غلاظ، فأضافت للكلمة صورة بيانية ألغتها الطريقة الأولى، فيمكن القول إن الفرق بين الطريقتين كالفرق بين الجملتين: "هو كريم" و "هو كالبحر في الكرم".

المثال الثاني في شرح جذر (جري):

- الجري: وهو انسياح الشيء، فيقال جرى الماء يجري جرية وجريا وجريانا، ويقال للعادة الإِجْرِيَّا، وذلك أنه الوجه الذي يجري فيه الإنسان، وسمي الوكيل جَرِيًّا لأنه يجري مجرى موكله، والجارية: السفينة، وكذلك الشمس.

---

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، 485/1

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات، 207

وأما الجِرِّيَّة وهي الحوصلة فالأصل الذي يعول عليه فيها أن الجيم مبدلة من قاف، كأن أصلها قرية، لأنها تقري الشيء أي تجمعه، ثم أبدلوا القاف جيما كما يفعلون ذلك فيهما.[1]

- "الجري في الأصل للماء، ثم استعمل فيما يمرّ كالماء، ويجري جريه، يقال: جَرَى يَجْرِي جِرْيَة وجَرَيَانًا، ومنه قيل للسفينة: جارية. والإِجْرِيَّا: العادة التي يجري عليها الإنسان، والجَرِيُّ: الوكيل والرسول الجاري في الأمر. ويقال للحوصلة: جِرِّيَّة، إمّا لانتهاء الطعام إليها في جريه، أو لأنها مجرى الطعام.[2]

يقال في هذا المثال ما قيل في المثال الأول إلا أن البيان هنا ليس لكلمة واحدة بل لكل كلمات الجذر. عندما تعلم أن الأصل شيء مادي محسوس فإنه يفتح الطريق إلى الوصول إلى عمق المعنى، وليس ذلك فحسب بل يعطي للكلمة روحا وحياة وحركة وطعما ولونا، فتحسّ بها وتراها، وتتأثر أكثر بكثير من أن تعلم أن كل كلمات الجذر تشترك في هذا المعنى أو ذاك.

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، 448/1

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات، 194

المطلب الثاني: أثر منهج الراغب في التمييز بين الحقيقة والمجاز:

المجاز يقوم على ثلاثة أركان: الأول المعنى الحقيقي الذي وُضعت له الكلمة، وهذه قضية لغوية معجمية، والثاني المعنى المجازي الجديد الذي دلت عليه الكلمة، والثالث: العلاقة التي بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. والأصل بحسب منهج الراغب الأصفهاني في كل جذر يمثل المعنى الحقيقي، وتتفرع عنه باقي الكلمات لعلاقة المشابهة أو غيرها، وهذه أمثلة توضح ذلك.

يقول الراغب الأصفهاني في الجذر (أكل): "الأَكْل: تناول المطعم، وعلى طريق التشبيه قيل: أكلت النار الحطب، والأُكْل لما يؤكل بضم الكاف وسكونه، وفلان مُؤْكَلٌ ومُطْعَمٌ استعارة للمرزوق، وثوب ذو أُكْلٍ: كثير الغزل كذلك، والتمر مَأْكَلَةٌ للفم. ويعبّر به عن النصيب فيقال: فلان ذو أكل من الدنيا، وفلان استوفى أكله، كناية عن انقضاء الأجل، وأَكَلَ فلانٌ فلانًا: اغتابه، وكذا: أكل لحمه. وعبّر بالأكل عن إنفاق المال لما كان الأكل أعظم ما يحتاج فيه إلى المال، نحو: وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ [البقرة/ 188]، فأكل المال بالباطل صرفه إلى ما ينافيه الحق، وقوله تعالى: إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نارًا [النساء/ 10] تنبيها على أنّ تناولهم لذلك يؤدي بهم إلى النار... وقد يعبّر بالأَكْلِ عن الفساد، نحو: كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [الفيل/ 5] وتَأَكَّلَ كذا: فسد، وأصابه إِكَالٌ في رأسه وفي أسنانه".[1]

إن المعاجم لا تعطي هذا الحد الدقيق بين المعنى الحقيقي والاستعمالات المجازية للأكل فابن فارس مثلا يرى أن الأصل هو "معنى التنقص" وهذه الأصل لجذر "أكل"

[1] المرجع السابق، 80

يساوي بين أكل الإنسان الطعام وبين أكلت النار للحطب، أو لا تؤكل فلانا عرضك... فكل هذا فيه معنى التنقص من غير تمييز بين حقيقة ومجاز، لأن التنقص هو المعنى الجامع بين لكل استعمالات الجذر، ويشمل ما استعمل فيه الأكل على سبيل الحقيقة وما استعمل فيه الأكل على سبيل المجاز.

وأما تناولُ الطعامِ أصلًا لجذر "أكل" فهو يعرّف المعنى الحقيقي ويميّز المعنى المجازي؛ فما كان في الطعام فهو حقيقة، وما كان في غيره فهو مجاز. ومما يؤكد هذا قول ابن عاشور رحمه الله تعالى في قوله تعالى وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ [البقرة/ 188]: "والأكل حقيقته إدخال الطعام إلى المعدة من الفم، وهو هنا استعارة للأخذ بقصد الانتفاع دون إرجاع، لأن ذلك الأخذ يشبه الأكل من جميع جهاته، ولذلك لا يطلق على إحراق مال الغير اسم الأكل، ولا يطلق على القرض والوديعة اسم الأكل".[1]

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، 187/2

المطلب الثالث: أثر منهج الراغب في الكشف عن الفروق اللغوية:

المقصود بالفروق اللغوية التمييز بين الكلمات التي تتقارب معانيها إلى درجة أن يقال إن للمعنى الواحد كلمات متعددة، مثل الشكر والحمد المدح، أو الحائط والجدار، وقعد وجلس... أو يقال للأسد كذا اسما، وللسيف عشرات الأسماء.

وكتاب "الفروق اللغوية" لأبي هلال العسكري هو الأشهر في هذا الباب فقد ذكر الضوابط والمعايير التي ينطلق منها في بيان الفروق اللغوية، وكان من أهمها معرفة أصل الاشتقاق وقال في ذلك: "وأما الفرق الذي يعرف من جهة الاشتقاق فكالفرق بين السياسة والتدبير، وذلك أن السياسة هي النظر في الدقيق من أمور المسوس، مشتقة من السوس هذا الحيوان المعروف، والتدبير مشتق من الدُبر، ودبر كل شيء آخره، وأدبار الأمور عواقبها، فالتدبير آخر الأمور، وسوقها إلى ما يصلح به أدبارها، أي عواقبها، ولهذا قيل للتدبير المستمر سياسة، وذلك أن التدبير إذا كثر واستمر عرض فيه ما يحتاج إلى دقة النظر، فهو راجع إلى الأول. وكالفرق بين التلاوة والقراءة، وذلك أن التلاوة لا تكون في الكلمة الواحدة، والقراءة تكون فيها، تقول: قرأ فلان اسمه، ولا تقول تلا اسمه، وذلك أن أصل التلاوة من قولك تلا الشيءُ الشيءَ يتلوه إذا تبعه، فإذا لم تكن الكلمة تتبع أختها لم تستعمل فيه التلاوة، وتستعمل فيه القراءة، لأن القراءة اسم لجنس هذا الفعل"[1] وبهذا تظهر أهمية معرفة أصل الاشتقاق وصلته الوثيقة بالكشف عن الفروق بين الكلمات التي تتقارب معانيها.

[1] أبو الهلال العسكري، الفروق اللغوية. ص 27.

نماذج من كشفه عن الفروق اللغوية:

الشكر والحمد:

يعرّف الراغب الشُّكْر بأنه "تصوّر النّعمة وإظهارها، ويضادّه الكفر، وهو: نسيان النّعمة وسترها، ودابّة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها. وقيل: أصله من عين شكرى، أي: ممتلئة، فَالشُّكْرُ على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه... ويقال: ناقة شَكِرَةٌ: ممتلئة الضّرع من اللّبن، وقيل: هو أَشْكَرُ من بروق، وهو نبت يخضرّ ويتربّى بأدنى مطر، والشَّكْرُ يكنّى به عن فرج المرأة وعن النكاح. والشَّكِيرُ: نبت في أصل الشّجرة غضّ، وقد شَكَرَتِ الشّجرةُ: كَثُرَ غصنها".[1] ويقول الراغب في الحمد لله تعالى: "الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخصّ من المدح وأعمّ من الشكر، فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشّكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكلّ شكر حمد، وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً".[2]

فالشكر لا يقال إلا في مقابلة النعمة، وأما الحمد فهو الثناء على المحمود لأنه أهل للحمد والثناء سواء كان ذلك في مقابل نعمة أسداها أو من غير ذلك، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً. السؤال الذي يراود الفكر: ما الذي دلّ الراغب الأصفهاني وغيره من اللغويين على أن الشكر لا يكون إلا في مقابل النعمة؟ ومن أين أتى بهذا التعريف الدقيق له؟

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات، 461

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات، 256

إن معرفة الأصل الذي أخذت منه الكلمة هو الذي تكفل بهذه المهمة، وكلمات الجذر شهدت بذلك، فالدابّة الشكور: هي التي تظهر سمنها بعد أن تنال قليلا من المرعى، والناقة الشَكيرة: التي تصيب حظًّا من المرعى فتغزر بعد قلة اللبن، ويقال: هو أَشْكَرُ من بروق، وهو نبت يخضرّ ويتربّى بأدنى مطر، وأشكر القوم: إذا نزل القوم منزلا وأصاب نعمهم شيء من بقل فأدرت، قال ابن سيده: "هذا يدل على أن الشكر لا يكون إلا عن يد".[1]

الأجل والجناية:

يرى الراغب الأصفهاني أن الأصل في الأجل وهو المدّة المضروبة للشيء، ويقال: دينه مُؤَجَّل، وقد أَجَّلْتُهُ: جعلت له أجلًا، ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال: دنا أجله، عبارة عن دنوّ الموت. وأصله: استيفاء الأجل أي: مدّة الحياة، والآجِل ضد العاجل. والأَجْلُ: الجناية التي يخاف منها آجلًا، فكل أَجْلٍ جناية وليس كل جناية أَجْلًا. يقال: فعلت كذا من أجله، قال تعالى: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ [المائدة/ 32]، أي: من جرّاء، وقرئ: (من إجل ذلك) بالكسر. أي: من جناية ذلك.[2]

فأَجَل عليهم شرا يأجُله ويأجِله أَجْلا بمعنى ارتكب جناية، إذا قرأتها في مقاييس اللغة وغيره من المعاجم لا ترى فرقا بينها وبين الجناية، ولا علاقة بينها وبين الأصل الذي أخذت منه، لكنك تجد عند الراغب الأصفهاني فرقا بين جنى يجني جناية وبين

[1] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، ط1. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421ه- 2000م) 680/6.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات 204

أجل يأجل أجْلا، وهو أن الأجْل للجناية التي يخاف منها آجلًا، فالراغب اعتمد على الأصل الذي أخذت منه الكلمة في التفريق بينها وبين جنى يجني جناية؛ فجذر (أجل) الأصل فيه عنده الشيء المؤخر إلى وقت، ومنه استنبط أن الأجْل يكون للجناية التي يخاف منها صاحبها في الأجل، فكل أَجْلٍ جناية وليس كل جناية أجْلًا، فقد يقترف شخص جناية دون خوف منها آجلًا لسلطانه أو مكانته أو قوته أو غير ذلك، بل لعله لغفلته وكبريائه يرجو من فعلته تلك ما يرجوه من يجني الثمرة من شجره من لذة ومتعة وزيادة في الرزق دون خوف من عاجل أو آجل.[1]

المطلب الرابع: أثر منهج الراغب في معرفة تاريخ الكلمة وبيئتها:

يتقاطع هذا المبحث مع علم الدلالة التاريخي الذي يركز على جانب مهم من جوانب دراسة الكلمة، فهو يُعنى برصد التغيرات التي تطرأ على معنى الكلمة عبر الزمن، فكلمة سيارة كانت تدل على مجموعة من المسافرين وصارت تدل اليوم على الآلة التي تنقل الناس في السفر، وكلمة الصلاة كانت تدل على الدعاء وأصبحت تدل على العبادة المعروفة. ولا يكتفي علم الدلالة التاريخي بتتبع تاريخ الكلمة من أجل رصد كيفية تغير معناها عبر التاريخ، بل يعنى كذلك بمقارنة معنى الكلمة الواحدة في مرحلتين تاريخيتين مختلفتين أو أكثر.[2]

ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك دراسة الدكتور شوقي ضيف لكلمة (أدب) فقد بدأ

---

[1] محمد محمود موسى الزواهرة، الفروق اللغوية عند الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات وأثرها في الدلالات القرآنية، (الأردن: الجامعة الأردنية، 2007)، 62

[2] توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة هلال محمد جهاد (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007م) 73

شوقي ضيف من أقدم استعمال وجده للكلمة، ثم تتبع تطور استعمالها وصولا إلى المعنى الحالي، يعرضه الباحث هنا مختصراً ليقارن بينه وبين دراسة أصل الكلمة على منهج ابن فارس والراغب الأصفهاني.

جذر (أدب) بحسب الدراسة التاريخية التي قدمه الدكتور شوقي ضيف أول كلمة فيه "آدِب" بمعنى الداعي إلى الطعام، ومن هذا المعنى المأدبة بمعنى الطعام الذي يدعى إليه الناس، ومنه أدَبَ يأدِب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها، ثم انتقلت الكلمة من هذا المعنى الحسي إلى معنى تهذيبي خلقي، كما جاء في الحديث: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" وفي العصر الأموي أضيف إلى المعنى الخلقي التهذيبي معنى ثاني جديد، وهو معنى تعليمي؛ فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدّبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء الشعر وأيام العرب، ثم توسع معناها فصار الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف، ثم أصبح يدل على ضرب من الكلام الجميل الذي يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات. [1]

وأما عند الراغب فالأصل في الأَدَب أن تجمع الناس إلى طعامك، وهي المأدُبة والمأدَبة، والآدِب الداعي إليها، والفعل أَدَبَ القومَ يَأْدِبُهُم أَدْبًا، إذا دعاهم إلى طعامه ومن هذا المعنى جاء المعنى الخلقي، فأصل الأَدَب على منهج الراغب أن تجمع الناس إلى طعامك، فسمي الطعام مأدبة، والداعي إليها آدِب، ثم استعمل في الدعوة إلى الأخلاق الحميدة، لأن الدعوة إليها والتَّخَلُّق بها محل استحسان الجميع، ففي

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ط1. (مصر: دار المعارف، 1995م، 10 أجزاء) 7/1

المعنى الأول كان الأدب دعوة لما يستحسنونه من طعام، وفي المعنى الثاني صار دعوة لما يُستحسن من أخلاق وصفات وأقوال وفعال.

إن تأصيل كلمة الأدب عند الراغب لم يقف عند رصد التغيير الذي لحقها في كل عصر فحسب، بل أضاف إلى العرض التاريخي تفسيرا لانتقالها إلى معنى جديد وطبيعة العلاقة بين المعنى الأول والثاني، وكأنهم عندما أطلقوا على الأخلاق الحميدة كلمة أدب يقولون: إن هذه الأخلاق طيبة مستحسنة تميل إليها النفوس بفطرتها وطبيعتها كما تميل النفوس إلى ما لذّ وطاب في المأدبة، وكما أن المأدبة يدعو إليها كرام الناس وكذلك الداعين إلى الأخلاق، وتجمع الناس على المأدبة مجلبة للسعادة والقرب والمحبة وكذلكم الأخلاق إذا تجمع عليها... وهكذا يتبين أن تأصيل الكلمة ليس مجرد عرض لتاريخ التبدلات التي لحقت لمعانيها، بل رَدُّ الكلمةِ إلى أصلها كردّ الروح للجسد، يضيف لها من المعاني والتأثير في النفس الإيحاء إلى العقل ما يرسخ المعنى ويجلي فيه جوانب لا تكون إلى به.

ومن الكلمات المناسبة للدراسة هنا كلمة (شكر) فيبين علم الدلالة التاريخي أن الشكر في العصر الجاهلي هو إظهار النعمة، ويأتي في مقابله الكفر الذي هو جحود النعمة كما قال الشاعر الهذلي:

فإن تشكروني تشكروا لي نعمة وإن تكفروني لا أكلفكم شكري

وقال عنترة:

فلا تَكْفُرِ النُّعمى وأَثْنِ بفضلها ولا تَأْمَنَن ما يُحدِثُ الله غدِ

فالشكر هو إظهار النعمة، ونقيضه جحود النعمة وإنكار الفضل، وهكذا كان معنى الشكر في العصر الجاهلي. وفي الإسلام لم يتغير مفهوم الشكر ولكنه ارتقى به إلى المستوى الديني كما فعل في كثير من الحالات الأخرى، فأصبح مصدر النعمة من الله تعالى، والإنسان إن استجاب لها على وجه صحيح فقد شكر، وإلا فقد كفر النعمة وأنكر الفضل وجحده.

وكان من الطبيعي أن يتطور مفهوم الشكر إلى مفهوم الإيمان، وتبعا لذلك يتحول مفهوم الكفر نفسه ليفقد معناه الدلالي الأصلي وهو الجحود إلى مفهوم عدم الإيمان، فيصبح في تضادٍّ مفهوميّ مباشر للإيمان "كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم". إن التحول الدلالي للكفر من الجحود إلى عدم الإيمان كان أكثر تأثراً من تحول الشكر إلى الإيمان، وذلك بسبب وجود كلمة الإيمان التي أعاقت نمو كلمة الشكر التي كانت ستحل محلها، وأما في الجهة المقابلة وهي "عدم الإيمان" فلم يكن له كلمة خاصة به فجاءت كلمة الكفر واحتلت المقعد الشاغر".[1] هذا بحسب علم الدلالة التاريخ.

وأما الانطلاق في دارسة الكلمة من معرفة أصلها الذي أخذت منه، فإنه يتطلب أولا تحديد الكلمة الأقدم في الجذر، ومن أهم القرائن التي تدل عليها أن سائر كلمات الجذر فيها بعض خصائصها وصفاتها، تشهد لها بالأولية والأصالة. وإن فهم العلاقات الاشتقاقية، والخبرة بالمسالك التي تسلكها الكلمات في تنقل معانيها يمكّنا الباحث من تقسيم معاني الكلمة إلى مراحلها المختلفة، وترتيبها بحسب قدمها، وإن لم تسعفه في ذلك الدارسة التاريخية للكلمة أو عجزت عنه لعدم توفر الاستعمالات

[1] إيزوتسو توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن، 360

والسياقات التي تحتاجها أي دراسة تاريخية.

الأصل في الشكر على منهج الراغب الأصفهاني هو شَكَرت الإبل تشكُر إذا نالت اليسير من المرعى فسمنت بعد هزال، وغزر لبنها بعد قلة. ومن ذلك أطلقوا الشكور على الدابة التي تكتفي بالعلف القليل، والشَّكِرة والمَشْكار من الحلائب التي تصيب حظًّا من بقل أو مرعى فتغزر عليه بعد قلة لبن. وأطلقوا على العشب الذي تأكله فيغزر لبنها عشب مَشْكَرَة.

فتلك البيئة التي نشأت فيها كلمة الشكر، وقد نصوا في المعاجم على أن الشكر بمعناه المشهور اليوم "هو من شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه"[1] ويؤيد هذا ويؤكده ما نُصَّ عليه في علم الدلالة التاريخي أن في المرحلة الجاهلية ثلاثة أنظمة للكلمات ذات ثلاث رؤى للعالم متضمنة فيها، أولها وأقدمها "المعجم البدوي الخالص ممثِّلًا للرؤية البدوية النموذجية للعالم"[2] ومما يدل على ذلك أيضًا أنهم اتفقوا على أن الشكر إنما يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد والمدح، فالإنسان الشاكر هو الذي تقع عليه النعمة فتظهر عليه آثارها وثمارها، ويثني على موليها ويعترف له بالفضل. ومصدرهم وحجتهم في هذا التفريق أن أصل الكلمة من شكرت الإبل إذا نالت حظًّا من مرعى فسمنت.

وعليه يكون للشكر بمعناه العام ثلاث صور: الأولى: عندما يقدم الإنسان لدابة قليلا من العلف، فيظهر عليها السمن، ويمتلئ ضرعها بالحليب. والثانية: أن يُسدي إنسان لإنسان معروفا ما، فيظهر أثره عليه، ويثني على صاحب المعروف ويعترف له

[1] ابن منظور، لسان العرب، 424/4

[2] إيزوتسو توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن، 75

بالفضل. والثالثة: أن الله أنعم على الإنسان نعماً لا تُعدّ ولا تُحصى، فمن استعملها فيما يرضي المنعم فقد شكر، ومن تناساها ووضعها فيما حرم الله فقد كفر النعمة.

إن مما يرجح صحة ترتيب صور الشكر السابقة ترتيبا زمنيا بالاعتماد على تأصيل الكلمة أن المعاجم نصت على أن الشكر بمعنى إظهار النعمة اشتقّ من شكرت الإبل إذا نالت حظًّا من مرعى فسمنت، والعلاقة بين المعنى الأول والثاني هي المشابهة، فهي إذن على طريقة الاستعارة، فإظهار الإنسان النعمة للمنعم كظهور فائدة العلف على الإبل في لحمها وحليبها. وعندما توضع الكلمة لمعنى جديدٍ مشتقةً من كلمة أخرى لعلاقة المشابهة، يدل على أن المشبه به قبل المشبه.

إن مجرد تمييز صور الشكر الثلاث ومعرفة الفرق بينها، ولو من غير ترتيب تاريخي بينها يؤدي وظيفة لا غنى عنها في بيان المعنى، منها التفريق بين الشكر وما يقاربه في المعنى كالحمد والمدح، ومأخذ هذا التفريق من معنى الاستعارة التي سبق شرحها، ومنها أنه يوضح الشكر من كل أطرافه: الشاكر، والمشكور، وسبب الشكر. كل ذلك يفهم من بيئة الكلمة حيث كان العرب يرعون الإبل فبعضها يظهر عليها السمن ويعزر حليبها فأطلقوا على هذا النوع من الإبل كلمة من جذر شكر، وسواء كانت هذه الكلمة أول كلمة استعملت في الجذر أم لا فإن استعمال العرب لها في هذا المعنى في تلك البيئة وفي ذلك الزمن هو أصدق تفسير لها.

على الرغم من أن دراسة تاريخ الكلمة ومراحل تطورها من اختصاص علم الدلالة التاريخي، إلا أن تأصيل الكلمة يقوم بهذا الجانب على اختلاف بينهما في المنهج والطريقة، فعلم الدلالة التاريخي يعتمد على النصوص التي وصلت إليها أيدينا محددة بزمن ما، أما تأصيل الكلمة فمنطلقه من المعاجم ويتمكن من ترتيب مراحل الكلمة

من خلال معطيات ومرجحات كثيرة منها العلاقات الاشتقاقية، فيعلم منها أن المشبه به سابق للمشبه، وأن السبب قبل المسبب، والمكان مُكوّن قبل ساكنه، وكما يعتمد على مسلمات أخرى، منها أن لغة البداوة وبيئة الصحراء أقدم من لغة الحضر، وأن المعاني الإسلامية تالية للمعاني التي كانت سائدة في الجاهلية، بالإضافة إلى ذلك فإنه يستفيد من معطيات علم الدلالة التاريخي في المناطق الزمنية المشتركة بينهما.

ويحجم علم الدلالة التاريخي عن الكلمات والمعاني التي وردت في المعاجم غير محددة في زمن معين، فتتفرد عندها الدراسة الاشتقاقية على منهج الراغب بمعرفة تلك الحقبة من تاريخ الكلمة وبيئتها، بل إنها لا تقف عند معرفة الأصل الذي تفرعت عنه الأغصان، بل تتوسع وتتعمق أكثر إلى معرفة التربة التي ألقيت فيها حروفها، والأرض التي أنبتت جذورها، والظروف المحيطة التي أثرت أو تأثرت فيها. ولا يخفى أثر هذا في زيادة المعنى وضوحا، وإكسابه دلالات ترسخه في العقل، وإيحاءات تؤثر في القلب. وهذه الدراسة غير متوفرة في معاجمنا القديمة حتى التي تهتم في رد الكلمات إلى أصولها كمقاييس اللغة لابن فارس فـــإنها لا تعنى بالبحث عن الكلمة الأقدم في الجذر أو الأولى فيه، وأما منهج الراغب فيفترض أن يكون الأصل في كل جذر هو أقدم كلمة فيه.

إن الأصل في جذر (جنب) عند الراغب هو الجَنْب: الجارحة، ثم يستعار منه للناحية التي تليه كعادتهم في استعارة أسماء الجوارح لجهاتها، نحو اليمين والشمال أي جهتهما وناحيتهما. وعلى طريقتهم في الاشتقاق من الأعضاء قالوا: جَنَبْتُهُ: أصبت جنبه، نحو: كبدته وفأدته، وقالوا: جُنِبَ إذا شكا جنبه، نحو: كبد وفئد. وبُني من الجنب الفعل على وجهين: أحدهما: الذهاب عن ناحيته، فيكون معناه البعد عن

الشيء، نحو: جَنَبْتُهُ، وأَجْنَبْتُهُ، وَاجْتَنَبته، ويقال: جَنَّب بنو فلان: إذا لم يكن في إبلهم اللبن، وجُنِبَ فلان خيرا، وجنب شرا. والتجنيب: الرّوح في الرّجلين، وذلك إبعاد إحدى الرجلين عن الأخرى خلقة. والثاني: الذهاب إليه فيكون معناه الاقتراب منه، ويصح أن يكون منه الريح الجَنُوب لمجيئها من جانب الكعبة، وأن يعتبر فيها معنى الذهاب عنه. واشتق من الجنوب جَنَبَتِ الريحُ: هبّت جنوبا، فَأَجْنَبْنَا: دخلنا فيها، وجُنِبْنَا: أصابتنا، وسحابة مَجْنُوبَة: هبّت عليها"[1]

فالأصل هنا هو الكلمة الأولى في الجذر، ثم اشتق من الجنب كما اشتق من الفؤاد والكبد أفعالًا تدل على أن هذا العضو أصيب بداء، واشتقوا منه ما يدل على الذهاب كعادة العرب في أعضاء الجسم فيقولون أقبل وأدبر، ومنه جاءت تسمية جهة الجنوب، وبعد أن أصبحت الجنوب تدل على الجهة مثل الشمال أجروا عليها ما يجرى على الجهات من الاشتقاق فأخذوا منها فعلا فقالوا: جَنَبَتِ الريحُ: هبّت جنوبا، وَأَجْنَبْنَا: دخلنا فيها، وجُنِبْنَا: أصابتنا، وهذا كقولهم في جهة الشمال: شَمَلَت الرِّيحُ تَشْمُل شَمْلًا وشُمُولًا: إذا تَحَوَّلَتْ شَمَالًا، وأَشْمَلَ القومُ: دخلوا فِي ريح الشَّمَال، وشُمِلُوا أَصابتهم الشَّمالُ. فنجد هنا أصلًا واحدا للكلمة يؤخذ منه كلمات على ما جرت عليه عادة اللغة العربية في نظائره.

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات، 205

النتائج والتوصيات:

ويمكن تلخيص النتائج التي توصل إليها البحث من دراسة منهج الراغب في رد الكلمات إلى الأصل الذي أخذت منه بالنقاط التالية:

1. إن أبرز ما يميز الأصل عند الراغب هو التجسيد فإن الغالب عنده أن يكون مجسداً. وقد ظهر أن منهج التجريد يقصُر عن منهج التجسيد في بيان المعنى.
2. معرفة الأصل الذي أخذت منه الكلمات هو الأساس الذي يميز الكلمة عن الكلمات التي تقاربها في المعنى.
3. الانطلاق من معرفة الأصل على منهج الراغب يضع حدا واضحا بين المعنى الحقيقي والمعاني المجازية.
4. إن دراسة الكلمة على منهج الراغب هو بمثابة تأريخ لها ولتطور معانيها.

كما يوصي البحث بما يلي:

1. الاعتماد على منهج الراغب في الدراسة التاريخية للكلمة العربية، فهو يقدم في هذا المجال منهجا علميا فريدا ودقيقا تفتقر إليه الدراسات التي تبحث في هذا المجال.
2. الانطلاق في دارسة الحقيقة والمجاز من تحديد المعنى الأصلي للكلمة وفق منهج الراغب من شأنه أن يحل مشكلة الخلط الذي تمتلئ بها المعاجم بين المعنى الحقيقي والاستعمالات المجازية.
3. أن يحذو الباحثون في التفسير منهج الراغب في رد الكلمات إلى أصولها فهو

يوفر فهما عميقا ودقيقا ويهب للكلمات التي اكتست لكثرة استعمالها ألفة قطعتها عن الأصل الذي أخذت منه، فأصبح كثيرون يظنون أنها متطابقة في معناها مع كلمات تقاربها.

4. أن يقارن منهج الراغب الذي يعتمد على تجسيد الأصل ووحدته بمنهج ابن فارس الذي يقوم على تجريد الأصل مع إمكان تعدده في الجذر الواحد.

الخاتمة:

أراد الراغب أن يحقق معاني ألفاظ القرآن الكريم فساقه ذلك إلى البحث عن الأصل الذي أُخذت منه الكلمة، فتميز كلٌّ جذر بخصائصَ مأخوذةٍ من الأصل، وكشف عن عادة العرب في اشتقاق الكلمات بعضها من بعض ومسار الكلمات وهي تتنقل من معنى إلى آخر.

أصبح للكلمة على منهج الراغب حدٌّ دقيق يميّزها، ويرسم حدود المعنى الذي تستقلُّ به عن غيرها، والجهة التي تشترك فيها مع غيرها، فرأى لكل كلمة أرومةً تتشعب منها الكلمات فتورق وتثمر، وما كانت حياة الأغصان وما عليها من أوراق وثمار على اختلاف بينها في اللون والطعم، والشكل الحجم، والطول والقصر، والقوة والضعف، والعلو والدنوّ، إلا بسبب تلك الأرومة العتيقة التي يغفل عنها كثير من الناس لانشغالهم بفروعها وما عليها من ألوان وطعوم وما توفره من فيء وظلال.

وأخيراً أدعو الله تعالى أن يرحم هذا العالم الجليل الراغب الأصفهاني الذي قدم جهداً عظيماً في خدمة القرآن ولغته، رحمه الله وتقبل منه، وجعل هذا البحث زيادة في حسناته، فهو من نهل، وعلى كلماته بني. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

1. إيزوتسو، توشيهيكو. **الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم**، ترجمة هلال محمد جهاد، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007م.
2. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت471)، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، جدة: دار المدني، بلا تاريخ.
3. الذهبي، محمد بن أحمد (ت٧٤٨ ه). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي، ط11. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م.
4. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، ط1. بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1420هـ.
5. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط4. دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، 1430ه – 2009م
6. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **الاعتقادات**، ط1. تحقيق شمران العجلي، بيروت: مؤسسة الأشرف، 1988م.
7. الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ). **الأعلام**، ط15. بيروت: دار العلم للملايين، 2002م.
8. الزواهرة، محمد موسى. **الفروق اللغوية الفروق اللغوية عند الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات وأثرها في دلالات الألفاظ القرآنية**، الأردن:

الجامعة الأردنية، 2007.

9. ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي (ت ٤٥٨هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1421ه – 2000م.

10. السيوطي، عبد الرحمن ابن أبي بكر (911ه). **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1418ه – 1998م.

11. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ). **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ – 2000م

12. ضيف، شوقي. **تاريخ الأدب العربي**، ط1. مصر: دار المعارف، 1995م.

13. ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي (ت ١٣٩٣هـ). **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير** الكتاب المجيد، تونس: الدار التونسية للنشر، عام ١٩٨4.

14. العسكري، أبو الهلال الحسن بن عبد الله (ت395ه). **الفروق اللغوية**. القاهرة: دار العلم والثقافة، بلا تاريخ.

15. ابن فارس، أحمد القزويني الرازي (ت395). **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون. دمشق: دار الفكر، 1399ه.

16. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ). **لسان العرب**، ط3. لبنان: دار صادر، 1414ه